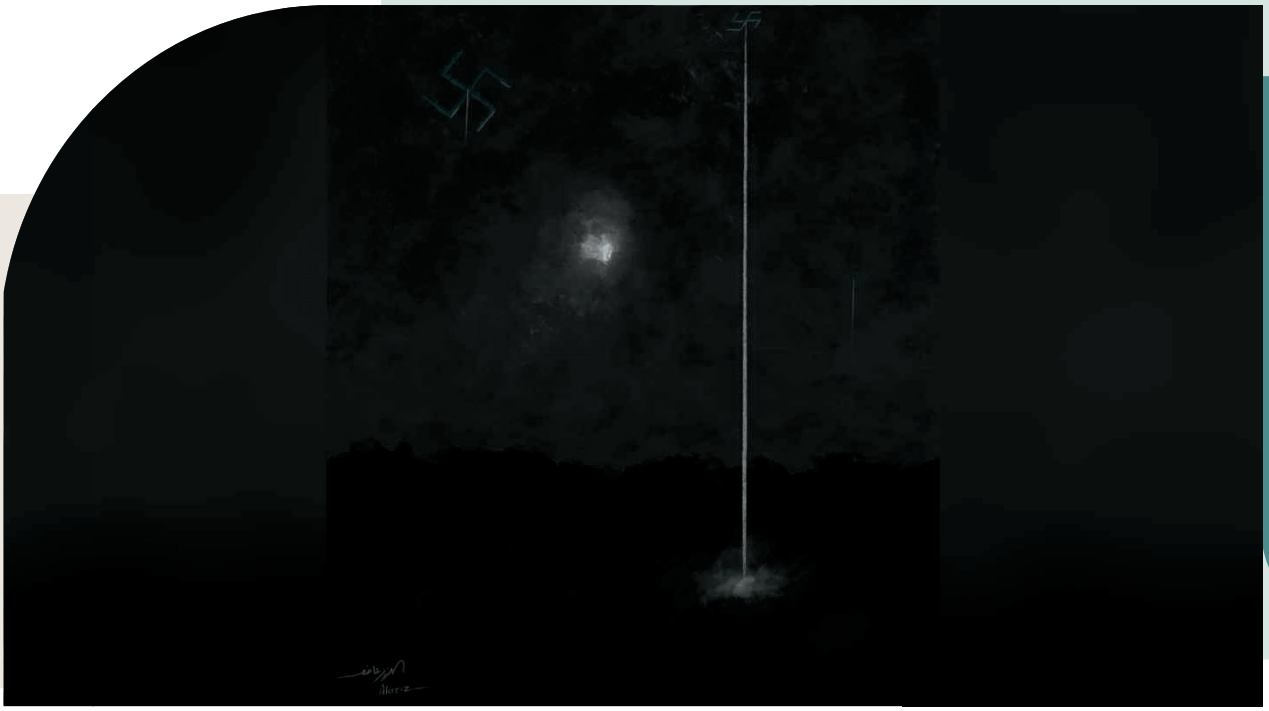

أيديولوجيا

«الانسِلادل» في زمنِ الطُّوفان

أيديولوجيا «الانسِلال» في زمنِ الطُّوفان

بِيسان عابد

ليـومِ السّـبتِ، السّـابع من تشـرين الأول 2023 معـانٍ مُتباينـة: الرّاحة والسُّـبوت «للشّـعب المُختـار»، وبِـدءُ الطّوفـان المُقـاوِم. فبمعنـاه الميثولوجـيّ الأوّل؛ يختتـم الـربُّ عمليّـة الخلـق في اليـومِ السّـادس، ويسـتريح في السّـابع. «وفـرَغَ اللهُ في اليـوم السـابِع مـن عمَلِـهِ الـذي عمِـل، فاسـتراحَ في اليـومِ السـابع.» (سـفر التكويـن، الإصحـاح 2).[1] وبالمعنـى الواقعـيّ الثانـي، تُحيـلُ المُقاومـة في غـزّة سُـبوتَ (راحَـة) المُسـتعمِر إلـى أرَق، وتُعلـنُ «طوفـان» الحـرب عليـه. وفيمـا «تتسـلّل» وحـدةُ «للجيـش الإسـرائيليّ» فجـرَ السـبت 21 تشـرين الأول لإحـدى القُـرى الفلسـطينية في الضفّـة الغربيّـة لتمـارسَ طقـوسَ الاختطـاف الليلـي واسـتعادة كرامـة «شمشـون» التـي ضاعـت في غـزة؛ تتـركُ لافتـةً بعبـارة مكتـوبٌ عليهـا: «رمتنـي بدائِهـا وانسـلّت».

تعبَـثُ المنظومـة الاسـتعماريّة في العبـارات -كمـا الأجسـاد- وتعيـدُ تحديـد سـياقات النُّصـوص (Re-Contextualization). وتبـدو «الإعـادة» مألوفـةً، فقـد مارَسـت إعـادة تحديـد «المـكان» (الفلسـطينيّ في المنفـى، اليهـوديّ في أرض الميعـاد)،[2] وإعـادة تقسـيم «الأجسـاد» في الحـرب إلـى إنسـانية وحيوانيّـة. وفي الوقـتِ ذاتِـه الـذي تسـتحضرُ فيـهِ العبـارةُ المكتوبـة مُصطلـحَ «انسـلّ»: أي خـرج في خِفيـةٍ وخِلسـة، و «الأسَـلُّ» هـو السّـارق، واصفـةً المُقاومـة في غـزّة بصفـاتِ المَكـرِ والاحتيـالِ والسّـرقة؛ «تسـلُّ» الآلـة الاسـتعماريّة الصهيونيّـة «سـيوفها الحديديّـة» على رِقـاب الأطفـالِ والنّسـاء والمعمـدان في الحَـرب.

يَطّـردُ معنـى «الانسِـلال» على جُملـة المُمارسـاتِ الصهيونيـة في السِـلمِ والحـرب؛ مُخفيـاً ومُجلّيـاً -في الوقـت ذاتـه- أسـلوباً مُلازمـاً للأيديولوجيـا الاسـتعماريّة. ولإعـادة موضَعـة المثَـل، «رمتنـي بدائِهـا وانسـلّت» في سـياقاته الواقعيّـة، نُعيـد طـرحَ سـؤالِ العبـارة: مَـن الـذي «يَنسـلُّ» في الحـربِ ومـن الـذي يرمـي «الـدّاء»؟

1 راوية زعموشي.»البنية الميثولوجية للقصة التوراتية: قصة الخلق أنموذجاً». مجلّة رسالة المَشرق. 2017.
2 عبد الوهاب المسيري. الأيديولوجيا الصهيونيّة: دراسة حالة في علم الاجتماع. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.1982.

«الطّوفان» يجرفُ الفاسِد مِن الخِطاب

يُصرّح وزير الدّفاع الإسرائيليّ في معرَض محاربته «الإرهاب» قطعَ «الكهرباء والطعام» عن ما أسماهم «الحيوانات البشريّة» في غزّة. وفي خطابٍ إعلاميّ درَجَ على التسّتر والتواري بالعبارات، يجرفُ «الطّوفان» معهُ ما فسَدَ من البشَر والحَجر وزيف العبارات. فينكشف الغطاءُ عن خطابِ السّلام السياسيّ؛ ويَستحلُّ «الحاخام» الإعلامّي ممتلكات «الأغيار» وأرواحهم وأجسادهم بالمعنى التلموديّ. ثُمّ تُصبحُ غزّة بسُكّانها تجمّعاً يضمّ «حيواناتٍ بشريّة» بوصفِهم، توصَمُ «بالإرهاب»، وبالتالي تجب إبادتُها بالمجازر الجماعية و»التطهير العرقيّ». وفي خِطابٍ آخَر، يُعيدُ أصحابُ المجازِر في «حيّ الرِمال» و «مخيّم الشاطئ» تقسيمَ البشر إلى «حيوانات» و «بشر». ولإحباك السرد، و «الانسِلال» من الحقيقة الاستعماريّة التطهيريّة؛ تُعيد الآلة الإعلاميّة «تَسمِية» الأشياء أيديولوجياً ودينيّاً. فتُصبح المُقاومة «إرهاباً»، والغزيّون «حيواناتٍ بشريّة»، أمّا مجزرة الإبادة للمرضى والنازحين في المستشفى المعمدانيّ فهي «موتٌ رحيم». وهذه الأخيرة أعجَزَت الحُكومةَ الإسرائيليةَ عن مُداراتها بخداعِ العبارات والتسمِيات، وعِظَم فاجعة العالَمَ بالدَم النازف، «فانسلّت» من الجريمة إعلامياً لترمي بها المُقاومين في غزّة.

تَستحضرُ الأيديولوجيا الصهيونية أسطورة «مَسادا» و»قلعة مَسادا» في إحالةٍ إلى معاني البُطولة والتضحية في القتال، وتأخذ الأسطورة بُعداً سياسياً في تطبيق «حنبعل» المُستخدم حالَ الحرب. وبهذا التوظيف السياسيّ للتاريخ والميثولوجيا الملحميّة؛ تحاول الحكومة الإسرائيليّة -على نحو ما- «الانسِلال» من ملف الأسرى الإسرائيليين في القطاع بالتنصّل من مسؤولية استرجاعهم والإشادة بإمكان التضحية بهم في الحرب. إنّ كُمون الأفكار في الخطاب الإعلاميّ الصهيونيّ، و»إعادة تسمية» الأشياء وقلبَ سياقاتِها، يستهدفُ توجيهَ فهمِ الجمهور وإعادة صياغته على مُسلّماتٍ تكونُ إسرائيل فيها «الضحية»، والفلسطينيّون ومُقاومتُهم هُمُ «الإرهاب».

«الانسِلال» من أرضِ المعركة ومن لَعنةِ الأجساد

تحدّث البعضُ عن ما أسمَوهُ «عُبورَ الأجساد». وفي ذات السّياق، أعلَن «دانيال هاغاري» عدد القتلى والأسرى في صفوفهم؛ مُتحدثاً عن الهجوم المُباغت للمقاومة في غزة بعد قطعِها السياج الأمنيّ الحدوديّ والوصول إلى المستوطنات المُجاورة لقطاع غزة. وفي الوقت الذي كان المقاومون ومن ثمّ الغزيّون يعبرون

بأجسـادهم «جهـاراً نهـاراً» السـياجَ الاسـتعماريّ العـازِل منـذ سـنوات، يتنفسـون كل شـبرٍ مُحتـلّ ويطؤونـه بأقدامهـم، مُتجاوزيـن حِصـار «المـكان» الـذي فرضـه الاسـتعمار عليهـم لسـنوات، «انسـلّت» الطائـرات الحربيّـة ليـلاً تقصـف البيـوتَ الآمنـة دونَ سـابق إنـذار. وممـا جـاء في «المَشـناه» التلمـوديّ في أحـكامِ قتـلِ ونجاسـة «الأغيـار»؛ القاتـل «اليهـوديّ» معفـيّ مـن العِقـاب، أمّـا الأغيـار فهُـم نجَـسٌ وممتلكاتُهـم نَجسـة.[3] وبينمـا تحـلُّ التعاليـم التلموديّـة محـلّ «قيـم الحـرب»، يُعلـنُ «الضّيـف» الطوفـان بـألّا «تقتلـوا طفـلاً صغيـراً، ولا شـيخاً كبيـراً ولا امـرأة، ولا تعقـروا نخـلاً ولا تحرقـوه، ولا تقطعوا شـجرةً مثمـرة، ولا تذبحـوا شـاةً ولا بقـرة ولا بعيـراً». وهكـذا، «تسـلُّ» الآلـة الحربيـة «سـيوفها»، بأطنـان مـن المتفجـرات المُحرِقـة علـى المدنييـن في غـزة، و «تنسـلّ» وفي الوقـت ذاتـه مـن العِقـاب، وتُصبـحُ بلغـة السياسـة «فـوق القانـون».

كشَـفَ شـلالُ الـدَم في مجـزرة المُستشـفى المعمدانـيّ الوجـهَ النـازيّ «الوحيـد» للمُسـتعمِر الإسـرائيليّ. وفيمـا اعتـادَت الأيديولوجيـا «الانسـلاليّة» إلغـاءَ الوجـود الفلسـطينيّ «العينـيّ» واسـتباحة الأرض باعتبارهـا «خاليـة»؛ كانـت «أجسـادُ» المرضى والنازحيـن والشُـهداء في سـاحة المعمدانـيّ تؤرّقهـا. فالفلسـطينيّ -عِندهـا- دونَ قسَـماتٍ وملامـح. ولا وجـودَ بشـريّ علـى الأرض؛ لا شـيءَ إلاّ «الوحوش الإسـرائيليّة» التي وعدَهـا الـربّ بـالأرض. كانـت سـاحةُ المعمدانـيّ في غـزّة «بشـريّة» للغايـة. أمّـا تجمـعُ الأجسـاد «الإنسـانيّة» فيهـا، فهـو مُزعـجٌ للآلـة الاسـتيطانيّة. الأجسـاد الفلسـطينيّة مـا زالـت بملامـحَ وقسَـمات تلتحـمُ بـالأرض، والـدمُ النـازف يُخضّـب التـراب ويُذكّـر في كُلّ مـرّة أصلانيّـة وجـوده. فشـرعَت الطائـرات الحربيّـة بإبـادة سـاحة المعمدانـيّ بأطنـان المُتفجـرات الحارِقـة للأجسـاد حتّـى تمحـي أثَـرَ الجريمـة والتهديـد الوجـوديّ: الـدَمَ والقسَـمات والأجسـاد.

تَرمي وتنسلّ

اسـتيقظَ «أصحـابُ السّـبت» مـن «سُـباتِهم»، السّـبتَ 21 تشـرين الأوّل، بعـد أن جـرَفَ «طوفـان الأقصـى» منظومتهـم الأمنيّـة، للتلاعُـب والاحتيـال بالعبـارات كمـا «احتالـوا» علـى الـربّ «يـومَ السّـبت». وفي تصريـحِ الموصوميـنَ «بالإرهـاب» للعالَـمِ أجمـع، يقـول المُلثّـم: «يأكلـون ممـا نأكُلـه، ويشـربون ممـا نشـرَبُهُ»، في إشـارة إلـى القيـمِ الإنسـانيّة في الحـرب للتّعامـل مـع أسـرى العـدوّ المُسـتعمِر. أمّـا الأسـرى الفلسـطينيّون في السـجّون، يقطـعُ «المُنسـلّون» أخبارهـم عقـبَ بـدءِ «الطُّوفـان»، ويحاولـون اسـتعادة كرامتهـم في غـزة بالتنكيـل بهـم خِلسَـة عـن العالَـم.

٣ [illegible] 2021.

كمـا أن الرمـي والانسِـلال لعبـةُ تمارسـها الآلـة الحربيّـة الاسـتعماريّة في «طوفـان الأقصـى» الجـاري؛ فهـي أيضـاً تتنصّـل مـن هـذا النهـجِ لترمـي بـهِ المُقاومـة والفلسـطينيين. فتنسـلّ مـن «الانسـلال» لترمـي الآخـر بتُهمـة الانسـلال ذاتِهـا. وفي وصـفِ «الضّيـف» للطّوفـان وسـفينتهِ، وانتشـارِ «الفسـاد» في الأرض، لـن تحمـل السـفينةُ إلّا البشـرَ وأصنافـاً مـن الحيوانـات الناجيـة، للحفـاظ على «النـوع البشـريّ». أمّا «المُنسـلّون» مـن «الوحـوش الاسـتعماريّة» و «سَـلِيلوهُم» مـن أتباعُهـم، فسـيَغرَقون في الفيضـان الجـارف، ويُتـاحَ لأبطـالِ الطّوفـان «الخلـود» في الملحمـة.

المَراجِع:

حمود بن غازي الحربي.»الآخر في اليهوديّة: التلمود نموذجاً». مجلّة الدراسات العَقديّة. 2021.

راوية زعموشي.»البنية الميثولوجية للقصة التوراتية: قصة الخلق أنموذجاً». مجلّة رسالة المَشرق. 2017.

سِفر التكوين. الإصحاح الثاني.

عبد الوهاب المسيري. **الأيديولوجيا الصهيونيّة: دراسة حالة في علم الاجتماع.** المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.1982.